ولقد تعذّر على بعض الأساتذة الحضور لسبب من الأسباب غير أنهم بعثوا ببحوثهم، إما لقراءتها بالنيابة، وإما لنشرها في مجلة الملتقى؛ تلقينا هذه البحوث من المغرب، من قطر، من عمان، من المملكة المتحدة (بريطانيا)، من روسيا البيضاء، من فرنسا ومن سوريا.

أيها السادة لا أنهي هذه الكلمة دون أن أتوجه بالشكر الخالص إلى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي التي مكنتنا من تمويل معظم نفقات هذه الندوة.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى والي ولاية وهران على الدعم الذي قدمه لنا، نشكر شركة الخطوط الجوية الجزائرية التي ساهمت بنصيب طيب في تمويل نفقات تذاكر السفر.

نشكر كل من:

- الأكاديمية الجامعية بوهران.
- جامعة وهران - السانيا.
- جامعة العلوم والتكنولوجيا ممثلة في مديرها ومحافظ مكتبتها.

وأقدم شكري وامتناني إلى السيد الحاج ميلود الكبير، صاحب شركة البناءات الحديدية بوهران الذي أنفق على الملتقى بسخاء.

**والله ولي التوفيق**

**والسلا عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته**

**أ/د. عبد الكريم بكري - مدير المعهد**

# وحدة الرسالات السماوية وشمولية القرآن

د/ محمد علي الشهرستاني
الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية
- لـــنـــدن -

جميع الانظمة والقوانين والشرائع التي اعتقد بها افراد البشر منذ ان عرفوا انفسهم الى يومهم هذا تنتسب وتنتهي جذورها الى مدرستين اساسيتين هما مدرسة الالهي ومدرسة البشري.

**مدرسة الإلهي :** هي التي تنتسب او تدعي الانتساب الى الله وتسمى بالرسالات السماوية وهي التي شريعتها وانظمتها وقوانينها من الله تبارك وتعالى باعتباره الموجود الوحيد الذي له صلاحية التشريع وسوف نتكلم عن هذه المدرسة بعد التكلم عن مدرسة البشري.

**أما مدرسة البشري:** فهي المدرسة التي تنتسب الى افراد البشري الذين وضعوا وسنوا القوانين والانظمة والشرائع التي كانوا يعتقدون بأنها انظمة وشرائع مخلصة للبشر وتوصلهم الى هدفهم المنشود الذي هو دفع الضرر والشر عن الانسان. هذه الانظمة والقوانين سنها عمالقة كبار دان لهم العالم بالعظمة والجلال وكان منهم فلاسفة وعرفاء وحكماء وعلماء تجريبيون وفلاسفة ماديون ورياضيون معروفون.

وقد بدأت هذه المدرسة كما جاء في كتاب الفلسفات الكبرى ابتداء من الخرافة الى الشيوعية اللينينية مرورا بالرياضيين والسوفسطائيين وفلاسفة الاشراق والمشائين والفلاسفة المسلمين والعرفاء ومدارس النهضة الاوروبية والعلماء التجربيين وغيرهم.

فمدرسة البشري تبدأ من الخرافة المتمثلة في عبادة الاصنام والاحجار والشجر والحيوان والتي تعتقد بطلب العافية من الصنم بنحر الشاة او طلب

الخير بشدة الخيوط بها او طب الشفاء من البقر بالتبرك بفضلاته والتي ينقضها العقل السليم من قبل جميع عقلاء البشر.

الى دور الايونيين والفيثاغوريين الذين ظهروا لنقض الخرافة بإعطائهم دورا للعقل، ولكن يتمركز في مجال الحسابات والرياضيات فاعتقدوا بأن الاعداد والحسابات لها دور اساسي في تنظيم حياة الانسان فأرادوا بوضعهم بعض القوانين الرياضية والحسابات ومنها الاسطرلاب ان يعطوا شريعة للحياة الانسانية.

دام هذا الاعتقاد حتى ظهور غوغياس السوفسطائي الذي نقض كل الاشياء فقال : (لا شيء موجود واذا وجد شيء ما فهو غير قابل للمعرفة، واذا كان قابلا للمعرفة فهذه المعرفة غير قابلة للانتقال الى الغير). واراد بهذا ان يقول ان الحسابات والارقام والرياضيات وحركات الافلاك وانظمة الفصول كسراب لايمكن الاعتماد عليها، كما عبر عنها الشاعر :

**كل ما في الكون وهم او خيال *** او نقوش في مرايا او ظلال**

وعليه فإن النظام المبني على الرياضيات باطل ويجب اتباع شريعة التحرر والتشخيص الفردي فإن النظام المبني على الرياضيات باطل ويجب أتباع شريعة التحرر والتشخيص الفردي في الحياة. غير ان هذا الرأي ينقض بكل بساطة بالدليل الحسي اي انك تلمس الشيء وترى الشيء وتسمع صوت الأشياء وإلى آخره.

## المدارس الفلسفية :

وبعد المدرسة السوفسطائية ظهرت المدارس الفلسفية الكبرى التي ابتدأت بسقراط ثم افلاطون الذي اعلن سلطان العقل وابتدع مدرسة الاشراق، ولأنه كان من طبقة النبلاء ركز على الحكومة والسياسة وكتب (جمهورية افلاطون) المعروفة ووضع قوانين للأنظمة السياسية وقواعد لتنظيم الحياة الانسانية ومدرسة الإشراق من المدارس الفلسفية الكبرى التي كان لها ولا

يزال اتباع كثيرون الى الآن ونشطت بين عدد من كبار الفلاسفة المسلمين وفي مقدمتهم السهروردي الذي كتب حكمة الاشراق.

وكانت هذه المدرسة تركز على سلطان العقل اي ارجاع جميع الامور الى العقل وما يحكم به العقل هو الصحيح وهو الحاكم الفصل والمرجع النهائي للقضاء والحكم على صحة الامور وسقمها وهو (اي العقل) القادر على وضع الانظمة والقوانين والشرائع للحياة الانسانية.

ولكن كبير فلاسفة الاشراق شهاب الدين السهروردي يقول في كتابه حكمة الاشراق (في بيان الوفاء بإعطاء الحدود الحقيقية حقوقها صعب جدا لجواز الاخلال بذاتي لم نطلع عليه، ولكثرة ما وقع فيها من الاغاليط الحدية). (1)

وهذا الكلام يعني ان معرفة القوانين تقتضي الاحاطة التامة والمعرفة الكاملة بذات لاشياء وابعادها وبصفات الاشياء وخواصها، فحينما يقول كبير فلاسفة الاشراق (لجواز الاخلال بذاتي لم نطلع عليه، ولكثرة ما يقع فيها من الاغاليط الحدية) معناه عدم معرفة جميع ابعاد الذات ومواصفاتها وحقيقتها، وللالتباس الذي يقع في معرفة حد الشيء وابعاده والحالة نفسها في الصفات وهو اعتراف صريح بعدم الاحاطة التامة، يعني عدم التمكن من وضع الانظمة والقوانين.

وخلف أفلاطون أرسطو في المدرسة الفلسفية الكبرى التي اعتبرت العقل سلطان الحكم في التشريع واكمل هذه المدرسة بوضع ميزان لمعرفة الواقع والحقيقة وسماه بعلم المنطق ولذا لقب بالمعلم الاول كما وضع خطأ فلسفيا يختلف في كثير من بنوده عن المدرسة الافلاطونية (مدرسة الاشراق) وسميت مدرسته بمدرسة المشاء.

وهذه المدرسة كمدرسة الاشراق له اتباع وفلاسفة عظماء مشهورون في العالم خاصة من بين الفلاسفة المسلمين كالفارابي الذي اكمل علم المنطق بعد حصوله على الثقافة والعلوم الاسلامية ولقب هذا العملاق الفكري بالمعلم

الثاني، وكذلك الفيلسوف الاسلامي العظيم ابن سينا الغني عن التعريف وابن رشد من بعده.

ورغم ان علم المنطق من العلوم الاساسية في البحث العلمي وفي موازنة القضايا الفكرية والعقلية ويستفاد من هذا العلم في معظم المدارس الالهية والدينية ويؤخذ بكثير منها او معظمها، ورغم ان هؤلاء العظماء من الفلاسفة والمفكرين تركوا اثرا كبيرا في المجال العلمي لحياة الانسان ولا يمكن لأحد ان ينكر فضلهم ومقامهم وقيمتهم العلمية والفلسفية، ولكنا نرى ان كبير فلاسفة المشاء ابن سينا يقول : (إنّ الوقوف على حقائق الأشياء ليس في قدرة البشر ونحن لا نعرف من الأشياء إلاّ الخواص والأعراض واللوازم، ولا نعرف الفصول المقومة لكلّ واحد منها بل نعرف أنها أشياء لها خواص وأعراض). (2)

إنّ هذه الجملة: (ولا نعرف الفصول المقومة لكلّ واحد منها) يعتبرها إبن سينا العامل الأساسي في (أن الوقوف على حقائق الأشياء ليس في قدرة البشر)، وهذا تماما ما قلناه أنّ الذي له صلاحية التشريع يجب ان تكون له الإحاطة التامة بذات الأشياء وأبعادها وبصفات الأشياء وخواصها.

وبهذا نرى ان فلاسفة الاشراق والمشاء يوافقوننا في الرأي من ان صلاحية التشريع منحصرة بالله سبحانه وتعالى، ولكن المشكلة تأتي من التابعين الذين لا يأخذون هذه الحقيقة بنظر الاعتبار، ويتصورون ويعتقدون ان التشريع من صلاحية العقل الانساني، فيضعون القوانين المدنية والانظمة التشريعية من ترشحات عقولهم او من ترشحات بعض اقوال متبوعيهم، واعتبروها هي التي تضمن نجاة الانسان وتحقق له أمانيه.

## مدرسة الإلهي :

أما أتباع مدرسة الالهي وهم الذين يتبعون او يدعون اتباع الرسالات السماوية فهم على ثلاثة اقسام :

**ـ القسم الأول :** أتباع المدرسة التي ترتبط ارتباطا تامت بالله قديما وحاضرا والى النهاية.

**ـ القسم الثاني :** اتباع المدرسة التي اخذت شرائعها من الله والرسالات السماوية ولكن نسخت من قبل الله او نسخها اتباعها.

**ـ القسم الثالث :** اتباع المدرسة التي تدعي الإنتماء إلى الرسالات السماوية ولا صلة لها بالله.

## القسم الأول :

وهي العقيدة والشريعة التي تعتقد بأن جميع الانظمة الانسانية يجب ان توخذ من الله تبارك وتعالى ولا يجوز لأي انسان وضع اي قانون واي نظام يعين تكليف المكلف في اي مستوى كان وفي اية منزلة إستقر، وليس لهؤلاء المبعوثين من قبل الله بالرسالات السماوية والمفوضين بأمر اللله الا حق التفسير والتأويل والتوضيح والبيان كل حسبْ صلاحيته. هذه المدرسة منحصرة في الشريعة الاسلامية والدين الاسلامي الحنيف والدليل على ذلك قوله تعالى: «**إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب**». (3)

وقوله تعالى : «**ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**». (4)

وقوله سبحانه: «**اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا**». (5)

والذي نعرفه عن صلاحية الانبياء والمرسلين والأئمة المعصومين بالنسبة للتفسير والتأويل لا يعطيهم الحق في وضع الحكم او نقص الحكم الذي انزله الله فهذا واضح تمام الوضوح كما في الآيات التالية :

«**وما كان لرسول ان يأتي بآية الا بإذن الله**». (6)

«**ولو تقول علينا بعض الاقاويل، لأخذنا منه باليمين،ثم لقطعنا منه الوتين**». (7)

«**وما ينطق عن الهوى، ان هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى**». (8)

هذا هو معتقد المسلم وهذه هي الشريعة الاسلامية التي يقرها الله كشريعة مقبولة ومرتبطة به، ويؤمن المسلم من خلال كتابه السماوي اي القرآن الكريم، ان صلاحية التشريع ملازمة لذات الله وغير متعدية لغيره.

## القسم الثاني :

أهل الكتاب : اما الشرائع والرسالات السماوية التي جذورها الهية وكتبها سماوية، فقد جاءت من قبل الله ولكن اما أنها نسخت من قبل الله او ان التابعين لهذه الاديان وعلماءها وضعوا سنة هذه الشرائع ومسخوها اي غيروا اصولها وجذورها واحكامها.

هذه الاديان والشرائع تسمى بالسماوية او الرسالة السماوية، والتابعون لها يسمون بأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى والمجوس. فإن التوراة والإنجيل والزبور كتب سماوية وشرائع الهية جاءت من قبل الله. ولكن بعد ان بعث الله رسوله محمد (ص) نسخت وانتهى مفعولها ودورها بشهادة الكتاب المقدس كما جاء في الآية الكريمة : «**وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التواة و مبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين**». [9]

وبالاضافة الى انتهاء دور هذه الشرائع بظهور الاسلام حرفت هذه الكتب وتغيرت احكامها ومتونها واصولها. كما جاء في الاية الكريمة : «**إن الدين عند الله الاسلام و ما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم و من يكفر بايات الله فإن الله سريع الحساب**». [10]

فهي اليوم ليست بشرائع مأخوذة عن طريق الله بل هي شرائع اما نسخت او شرائع من وضع البشر فهي مشحونة بالكفر والشرك والكلام المنافي للعقل والوجدان كما في الكتاب المقدس التوراة والانجيل.

كما تجب الاشارة الى ان هناك طوائف ومذاهب في اليهودية لا تعتبر التلمود شريعة مطابقة لتوراة ولذا لايعترفون بصحة مذهب التلموديين وهم اليهود الحاكمون في اسرائيل في الحال الحاضر.

## الإختلاف في أحكام الشرائع السماوية :

وتقتضي الاشارة الى نقطة جوهرية في هذا المكان وفيها جواب الذين يتساءلون عن كيفية اختلاف الشرائع في احكامها وبنودها وطقوسها وقوانينها مع انها من مشرع واحد. لقد توصلنا الى ان الشريعة عبارة عن القوانين المظمة للعلاقات بين الموجودات في هذا الكون بدءا بالبشر وانتهاء بالله، وبما ان هذه الموجودات ثابتة في ذواتها وصفاتها وخواصها، اذا يجب ان تكون العلاقات ثابتة ايضا، ومعنى هذا ان الشرائع يجب ان تكون واحدة.

هذا الاشكال وارد الى حد ما ولكن ليس تماما. فكل ما في الكون ليس بثابت بل فيه الثابت وفيه المتغير (وسوف نوضح الامر في بحث المحكم والمتشابه).

فإذا كانت موجودات العالم بعضها ثابتة وبعضها متغيرة فطبيعي ان تتغير القوانين باقتضاء المتغيرات وتبقى ثابتة في الثوابت غير ان علم هذه المتغيرات والثوابت عند الله. لذا فالشريعة التي يضعها من الممكن ان تكون محددة بزمن معين او بمكان معين، باقتضاء المتغير او احكام ثابتة بالنسبة للامور التي لم تتغير. وهذا يعني ان التغيير في الحكم من قبل الله طبيعي وجائز.

لذا نرى شريعة موسى (ع) تنتهي بظهور عيسى (ع) وشريعة عيسى (ع) تنتهي بشريعة محمد (ص) ويؤكد سبحانه وتعالى ان هذه الشريعة (اي الاسلام) باقية الى يوم القيامة بقوله تعالى : «**ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما**». [11]

فلرب معترض يقول : إذا كانت هذه الشرائع السماوية محدودة بزمن معين واحكامها تتغير بعد انتهاء دورها والموجودات الكونية متغيرة وثابتة، والانظمة التي تتغير هي الأنظمة والأحكام المتعلقة بالمتغيرات اذا لماذا ينتهي دور الاحكام المتعلقة بالثوابت في الشرائع والاديان السماوية التي نزلت على

موسى وعيسى وحتى نوح وابراهيم عليهم السلام وكذلك التي نزلت على محمد(ص) والتي كانت كلها واحدة بدليل الآية الكريمة : «**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**». [12]

تصرح هذه الاية بكل وضوح ان الذي وصى الله به نوحا وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام بالنسبة للثوابت في اقامة الدين واحد وهي شريعة ثابتة موحدة لا اختلاف فيها. اذا فمن اين أتى هذا الاختلاف؟!

أتى هذه الاختلاف من «**وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم**» [13] أي ان هذه الاحكام والقوانين المنسوبة الى الله تعالى من وضع القساوسة والحاخامات الذين اكد القرآن على تحريفهم لاحكام الله وفرائضه فقال عز وجل : «**ورهبانية ابدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون**». [14]

## الأديان المبتدعة :

وهي الاديان التي تدعي الارتباط بالله ولا صلة لها بالله اي ان اصحاب هذه الشرائع والاديان حينما طرحوا مبادئهم وآراءهم ادعوا انهم من أولياء الله وانهم مكملون او مجددون للإسلام وللشريعة السماوية، ولكن بعد ذلك حدا بهم الغلو الى ادعاء النبوة وفي بعض الحالات الربوبية.

من هذه الاديان القاديانية في الهند التي جاء بها غلام احمد القادياني والذي ادعى في بادئ الامر انه من اولياء الله وتظهر له كرامات وتنكشف له الامور فتبعه من تبعه وبعد سنوات قليلة ادعى النبوة وأنه مبعوث من قبل الله وله شريعة جديدة بعد الشريعة الاسلامية. وفي هذا انقسم اتباعه الى قسمين قسم استمر في الاعتقاد به كولي من الأولياء ولكن الشريعة الحقة هي الشريعة الاسلامية ويسمى هؤلاء (بالأحمدية)، وقسم آخر استمر في الاعتقاد بالتحول الذي ادعاه غلام احمد من كونه نبيا وهؤلاء يسمون بالقاديانية وهم

يعتقدون بأن غلام احمد نبي، وصاحب شريعة سماوية جديدة ناسخة للشريعة الاسلامية وإن كانوا في بعض الاحيان ينسبون أنفسهم الى الاسلام سياسة وخداعا.

ومن هذه الاديان البهائية التي جاء بها (علي محمد باب) الذي ادعى في بادئ الامر انه الباب الى المهدي المنتظر، وبعد ذلك ادعى أنه هو المهدي المنتظر الموعود الذي يملأ الله به الأرض قسطا وعدلا، وتبعه بعض السذج من ضعفاء الايمان وكانوا يسمون (البابية) وخلفه الشيخ حسين علي النوري الذي لقب نفسه ببهاء الله وادعى النبوة ويعتقد اتباعه بأن دينه ناسخ للاسلام وهو الدين المنقد البشرية ويسمى هؤلاء (البهائية).

هذه المذاهب والاديان لا يمكن اعتبارها صحيحة ومقبولة لا من قبل الله ولا من قبل الناس. لأنها تستند الى احكام وقوانين وشرائع من وضع البشر.

في هذا القسم من البحث بعد استعراض الآراء البشرية المختلفة والرسالات السماوية، الدائمة منها والمنسوخة، وبيان وحدة هذه الرسالات بموجب الآية الكريمة «**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**»، وما اوضحناه من علة لاختلاف متون هذه الرسالات السماوية ننتقل الى آخر هذه الرسالات، وهي رسالة نبينا محمد بن عبدالله (ص) ودينه الذي هو الاسلام وكتابه الذي هو القرآن. وهنا علينا ثبات شمولية القرآن لحل جميع مشاكل الحياة وشؤونها المتعددة في كل عصر وزمان ومع اية ثقافة وحضارة.

أنزل الحكيم على رسوله الكريم (ص) ليكون النظام الأساسي لعمل المسلم ولبيان الحلال والحرام والمندوب والمكروه وما كان منه يقتضي بيان العلة والدليل أعطاه، وما كان منه يقتضي الايمان والتعبد اقره كما شاء.

والقرآن فيه تبيان لكل حكم ولكل شيء وفيه جميع الهداية والرحمة التي ارادها لعباده كما قال عز وجل : «**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**». (15)

أما حجيَته أي كونه من الله تبارك وتعالى فهو في اعجازه اي إنه لو كان من عند غير الله لتمكن البشر من الاتيان بمثله او بعشر سور من مثله او بسورة من مثله. فتحديه للبشر من يوم نزوله الى يومنا هذا والى قيام يوم القيامة دليل على اعجازه وكونه من الله عز وجل. قال الله العزيز في محكم كتابه :

**«ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين».** [16]

**«هو الذي أنزل عليك الكتاب منه ايات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا».** [17]

**«إنا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس».** [18]

**«يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله».** [19]

**«وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه».** [20]

**«ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة».** [21]

**«وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين».** [22]

**«أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا».** [23]

هذا مجمل من تفصيل يعطي الحجية القطيعة بنزول القرآن من قبل الله تبارك وتعالى.

أما الذي جاء في الروايات والاحاديث المنقولة عن الرسول (ص) والأئمة المعصومين (ع) فهي تفوق هذه الايات بكثير ولكننا ننقل حديثا واحدا عن الرسول (ص) لجميل ما فيه من دقة وبيان ونصح.

في مجمع البيان للطبرسي عن علي امير المؤمنين (ع) عن رسول الله (ص) قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : (انها ستكون فتن، قلت فما المخرج منها يا رسول لله؟ قال : كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة رد ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي من تركه من جبار قصمه لله، ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله هو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي من عمل به أجر، ومن حكم به عدل ومن دعا اليه دعا الى صراط مستقيم).

فالحلقة الاولى والعروة الوثقى المتصلة بالله تبارك وتعالى هو القرآن ولذا يعتبر المصدر الاول لأخذ الاحكام وقوانين الشريعة. لكن، هل الايات الموجودة في القرآن جميعا واضحة المفهوم جلية المقصود لا يتردد القارئ والفقيه في معرفة الغاية منها واستنباط الاحكام الكلية والتفصيلية منها، كما قال الخليفة الثاني في رزية الخميس : (حسبنا كتاب الله) أم ان القرآن نفسه لا يقر هذا القول، ويقول العزيز فيه بكل وضوح وجلاء : «**منه آيات محكمات هن ام الكتاب، وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويه الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**». (24)

## ما هي المحكمات وما هي المتشابهات في الأحاديث والروايات؟

في تفسير العياشي سئل ابو عبدالله عن المحكم والمتشابه، قال : (المحكم ما يعمل به، والمتشابه ما اشتبه على جاهله)

وفيه عن أبي عبد الله (ع) قال: (إنّ القرآن محكم ومتشابه، فأما المحكم فتؤمن به وتعمل به وتدين، وأما المتشابه فتؤمن به ولا تعمل به، وهو قول اللّه عزّ وجل: «**فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه إبتغاء الفتنة وإبتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**» والراسخون في العلم هم آل محمد (ص)).

وفي الكافي عن الصادق (ع) قال : (نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله)،وفي رواية : (فرسول الله (ص) افضل الراسخين في العلم، قد علمه الله عز وجل جميع ما انزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئا لم يعلمه تأويله، وأوصياؤه، من بعده يعلمونه كله).

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين(ع) في حديث قال : (ثم ان الله جل ذكره بسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبدلون من تغيير كلامه، قسم كلامه ثلاثة اقسام، فجعل قسما منه يعرفه العالم والجاهل وقسما لا يعرفه الا من صفا ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه ممن شرح الله صدره للإسلام وقسما لا يعرفه الا الله وأنبياؤه والراسخون في العلم)

## آراء الفقهاء والمفسرين:

قال الشيخ ابو عبدالله محمد بن ادريس في كتاب (المنتخب في تفسير القرآن) : {المحكم هو ما علم المراد بظاهره من غير قرينة تقترن اليه او دلالة تدل على المراد به لوضوحه نحو قوله : «**إن الله لا يظلم الناس شيئا**»، [25] وقوله : «**إن الله لا يظلم مثقال ذرة**». [26]

والمتشابه ما لايعلم المراد بظاهره حتى يقترن به ما يدل على المراد لالتباسه، نحو قوله تعالى : «**وأضله الله على علم**»، [27] فإنه يفارق قوله تعالى : «**واضلهم السامري**»، لأن اضلال السامري قبيح واضلال الله بمعنى حكمه بأن العبد ضال ليس بقبيح والمتشابه في القرآن الكريم يقع فيما اختلف الناس فيه من أمور الدين نحو قوله تبارك وتعالى : «**ثم استوى على العرش**». [28] فاحتمل في اللغة كاستواء الجالس على السرير، واحتمل ان يكون بمعنى الاستيلاء نحو قول الشاعر :

**ثمّ إستوى بشر على العراق *** من غير سيف ودم مهراق**

واحد الوجهين لا يجوز عليه لقوله : «**ليس كمثله شيء**»، [29] وقوله: «**لم يكن له كفؤا احد**»، [30] والآخر يجوز عليه} انتهى بهذا قول ابن ادريس.

اما شيخ الطائفة الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة 460هـ فيقول في مقدمة تفسيره للقرآن والمسمى (بالتبيان في تفسير القرآن) ما نصه : {فالمحكم ما انبأ لفظه عن معناه من غير اعتبار امر ينظم اليه سواء كان اللفظ لغويا او عرفيا ولا يحتاج الى ضروب من التأويل، وذلك نحو قوله :

«**لا يكلف الله نفسا الا وسعها**». [31]

وقوله : «**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله**». [32]

وقوله : «**قل هو الله احد**». [33]

وقوله : «**لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد**». [34]

وقوله : «**وما ربك بظلام للعبيد**». [35]

والمتشابه ما كام المراد به لا يعرف بظاهره بل يحتاج الى دليل وكان ذلك محتملا لأمور كثيرة او لأمرين، ولا يكوز ان يكون الجميع مرادا فإنه من باب المتشابه، وانما سمي متشابها لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد وذلك نحو قوله:

«**يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله**». [36]

وقوله : «**والسموات مطويات بيمينه**». [37]

وقوله : «**تجري بأعيننا**». [38]

وقوله : «**يضل من يشاء**». [39]

وقوله : «**فأصمهم واعمى ابصارهم**». [40]

وقوله : «**وطبع الله على قلوبهم**». [41]

ونظائر ذلك من الايات التي يبدو المراد منها غير ظاهرها} انتهى قول شيخ الطائفة.

وعليه يمكن التعبير باختصار : ان المحكمات هي الايات التي لاتحتاج الى تأويل لأن المقصود منها واضح وجلي لكل عارف باللغة العربية. وأما المتشابهات فهي الايات التي تحتاج الى توضيح المقصود منها لأنها تقبل وجهين او عدة وجوه مما يجعل المكلف السامع الذي يريد العمل بها وحتى العالم الفقيه الذي

يريد استنباط الحكم منها حائرا ومترددا يفتش عن دليل رحجان في الوجه الذي يجب اختياره.

وفي احتواء القرآن على المحكم والمتشابه تكمن شمولية القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان، فرغم الشبهة المطروحة على القرآن الكريم والتي تقول : ان القرآن فيه محكم ومتشابه وقد وصفه الله تعالى بأنه محكم جميعه ووصفه في مواضع اخرى بأنه متشابه وذكر في موضع اخر ان بعضه محكم وبعضه متشابه، كما في الايات التالية :

**«الر، كتاب احكمت اياته».** [42]

**«الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها».** [43]

**«هو الذي انزل عليك الكتاب منه ايات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات».** [44]

هذا يوحي بالتناقض فكيف يمكن ان يكون من عند الله ويعتبر اعجازا مع وجود التناقض فيه. الجواب على هذه الشبهة نعرفه من وجود الثوابت والمتغيرات في الحياة.

## الثابت والمتغير :

لقد اتفقت الخاصة والعامة على ان القرآن دستور ابدي ومعجزة خالدة الى يوم القيامة، وحلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة. وأن الله تبارك وتعالى اسبغ نعمه على البشر وبين لهم كيفية الاستفادة من هذه النعم بالشرائع السماوية التي تنتهي بالشريعة الاسلامية، والتي اودع قوانينها وانظمتها في القرآن الكريم، علمنا ان القوانين والانظمة عبارة عن بيان الصلات والعلاقات بين ذات الاشياء وخواصها.

فإذا كانت الصلات والعلاقات او الذوات والخواص ثابتة تكون القوانين ثابتة واذا كانت متغيرة يجب ان تكون القوانين متغيرة ايضا. وبما اننا نرى كثيرا مما في الكون متغيرا ومنذ اكثر من الف واربعمائة سنة الى يومنا هذا حدث تحول كبير في معالم الحياة، فكيف يمكن ان يكون كل من القانون الثابت

والكتاب الثابت قابلا لإعطاء قوانين الحياة في هذا العالم المتغير الى يوم القيامة؟

لو استعرضنا علمنا ومعرفتنا لما في الكون من ذوات وصفات نجد بعضها ثابتا وبعضها متغيرا. ومثال على ذلك لو جمعنا اثنين الى اثنين تكون النتيجة اربعة ولا يمكن ان تكون اكثر ولا اقل.

إجتماع الليل والنهار محال لا يمكن ان يتغير.
دفع الضرر عن النفس فطري لا يمكن ان يتغير.
اشغال المادة حيزا من المكان شيء لا يمكن ان يتغير.
ملازمة الحرارة للنار ذاتية لا يمكن ان تتغير.
الظلم وقتل النفس واخذ مال اليتيم قبيح لا يمكن ان يتغير.

كل هذه الامور من علاقات وصفات وذوات ثابتة لن تتغير مهما تمادت الايام وتغيرت الاحوال والازمنة والامكنة وغيرها.

وهنالك امور وخواص وعلاقات وحتى ذوات متغيرة علمنا بها وفهمنا لها واستفاداتنا منها تتغير بتقدم العلم وبتغير الاحوال وباكتشاف المكنونات. ومثال لذلك : علمنا بحركة الارض، قوانين الجاذبية والحركة، تأثيرات الماء والهواء والحرارة وغيرها من الاجسام. هذه علوم ومعارف عن بعض الذوات والخواص الثابتة والتي كانت اما خاطئة كالاعتقاد بثبات الارض وحركة الافلاك، وبعضها لم تكن معروفة عرفها الانسان فيما بعد كالجاذبية والذرة والكهرباء وغيرها. فذوات هذه الاشياء وخواصها ثابتة ولكن العلم بها او العلم بعلاقاتها متغير، حيث تغيرت بمرور الازمان من جراء تقدم العلم والاكتشافات.

ومن الذوات امور متغيرة عرفها الانسان كاستحالة الميتة الى الملح او تحول الخمر الى الخل وما شابه ذلك. ومنها ما لم يعرفها الانسان عند نزول القرآن وعرفها فيما بعد فسخرها لصالحه وفائدته مثل انتقال الوقود الى طاقة حرارية، او تغير الامواج المغناطسية الى طاقة كهربائية او استبدال كثير من

المواد الاولية الى عناصر كيماوية وعقاقير طبية، ومنها ذوات ثابتة ولكن خواصها وتأثراتها لم تكن معلومة فاكتشفها الانسان واصبحت تأثيرات هذه الخواص متغيرة، فاخترع الانسان من هذه الخواص اختراعات جمة كالاستفادة من تأثير الهواء على اجنحة الطائرة لرفعها في الجو، او تأثير البخار على حركة العجلة، او تأثير الامواج الالكترومغناطيسية على نقل الامواج الصوتية وغيرها، فهي ذوات ثابتة ولكن الاستفادة من تأثيراتها وخواصها متغيرة، تغيرت هذه الإستفادة بتقدم العلم والتكنولوجيا.

هذه نماذج من المتغيرات التي يشعر بها الانسان فقد كان قديما يسافر على البغال والحمير من مكان الى مكان فأصبح ينتقل بالعربة ثم بالقطار وثم بالسيارة واليوم بالطائرة والصواريخ.

وكانت اتصالاته بالرسالة ثم التلغراف ثم التلّيفون ثم الراديو ثم التلكس واليوم بالفاكس. وكان يضيء بيته بمصابيح الزيت ثم الفانوس وبعده بالمصباح الكهربائي واليوم بالفلورسنت. نعم هذه متغيرات كما فصلناها وتلك ثوابت على ما بيناها.

إذا ما في الكون قسم منه ثابت لن يتغير وجزء آخر منه متغير يتغير بمرور الازمان وبتقدم العلم وباكتشاف الانسان لما هو مكنون في الذات والخواص. ولذلك فمن الطبيعي ان يكون جزء من القانون الموضوع لاستفادة الانسان في هذا الكون، ثابتا لن يتغير وقسم منه متشابها يحتاج الى بيان المقصود منه في كل زمان ليلائم المتغيرات والمستحدثات.

وهذا هو إعجاز القرآن الكريم، فهو قانون ابدي الى يوم القيامة يجب ان يغطي الثابت والمتغير لذا «**منه آيات محكمات هن أم الكتاب**» لتغطية الثوابت «**وأخر متشابهات**» لتغطية المتغيرات.

وخوفا من التلاعب في المتشابهات اي عدم بيان المقصود الواقعي في كل زمان ومكان، منع العمل بالمتشابهات منعا باتا قبل الرجوع الى الراسخين في

العلم الذين ينحصرون انحصارا تاما بالنبي (ص) واهل بيته (ع) بموجب التفويض الذي فوضه الله اذا قال : «**وما ينطق عن الهوى، ان هو الا وحي يوحى**»[45] والرسول (ص) اعلن صلاحية التأويل للأئمة المعصومين من اله في الحديث المتواتر المجمع عليه من قبل اصحاب المذاهب الاسلامية وأئمتها وهو حديث الثقلين : (اني مخلف فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض).

ومعنى هذا ان اهل بيت رسول الله (ص) المعصومين هم عدل القرآن ولن يفترقا حتى يرد الحوض. وهذا امر طبيعي جدا فلو لم يكن هنالك مسوولا عن المتشابهات لم تتم الهداية بل القاء الناس في الضلال (والعياذ بالله). لذا يجب ان يكون الامام المعصوم حيا لا يجوز مسؤولا عن تأويل المتشابهات الى الاجل المعلوم. وقد قال شيخنا الطوسي : لأنه لا يجوز ان يأمر بالتمسك بما لا نقدر التمسك به.

## الخلاصة:

الإنسان في الرسالات السماوية هو الغاية والهدف، يقول العزيز جل وعلا في كتابه المجيد على لسان موسى (ع) حينما سأله فرعون «**قال فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى**» [46] وهذا يعني ان الهداية من مستلزمات الخلق والهداية تستوجب الشريعة وارسال الرسل وهذه هي الرسالة السماوية واستنادا لما ذكرناه قال علماء الكلام (بقاعدة اللطف). وقاعدة اللطف تستوجب ارسال الكتب السماوية المتضمنة لاحكام الحلال والحرام لهداية الانسان واسعاده وتبين له كيفية الاستفادة من النعم المسخرة له في الحياة.

غير ان افراد البشر انقسموا الى قسمين، منهم من قال بأن كيفية الاستفادة من النعم المسخرة وتنظيم حياة الانسان يجب ان تكون بالقوانين والانظمة الوضعية التي تسنها العقول البشرية والعلوم الفلسفية، وهذه المدرسة سميناها بالمدرسة البشرية، ومنهم من قال وعلى رأس هؤلاء الأنبياء

والرسل بأن كيفية الاستفادة يجب ان تكون بالشرائع الالهية والرسالات السماوية، وقد استثنينا في مقدمة هذا البحث بطلان اقوال المدرسة البشرية وانحصار الهداية في المدرسة الالهية، اي الرسالات السماوية وشاهدنا ان الدليل ساقنا الى وحدة الاديان في الاصول الثابتة واختلافها في الامور المتغيرة، ولذا كانت الأحكام في الاديان السماوية بعضها محددة بحدود وزمان، كما كانت في اليهودية والمسيحية لذا عند انقضاء دورها وزمانها بعث الله نبيا من جديد وهي الحالة في رسالة سيدنا عيسى (ع) بعد سيدنا موسى(ع) وبعثة نبينا محمد (ص) بعد عيسى (ع) . وكانت الكتب السماوية ناسخة لما قبلها كما هي في نسخ الانجيل للتوراة والقرآن للانجيل. والسبب في ذلك عدم شمولية التوراة والانجيل لجميع العصور والازمان.

ولكن القرآن حينما نزل على محمد (ص) أعلن ان محمدا خاتم النبيين وسيد المرسلين بقوله : «**ما كان محمدا ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**»، [47] فكان حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة. وهذا يعني ان القرآن الذي يشتمل على كل رطب ويابس له الشمولية على كل حكم وتشريع الى قيام يوم القيامة. وبما ان الحياة فيها الثابت والمتغير، لذا كان من الاقتضاء ان تكون ايات القرآن الذي يشمل على كل رطب ويابس له الشمولية على كل حكم وتشريع الى قيام يوم القيامة. وبما أن الحياة فيها الثابت والمتغير، لذا كان من من الاقتضاء ان تكون ايات القرآن متمتعة بالشمولية على الثوابت والمتغيرات، فكانت المحكمات للقضايا الثابتة التي لن تتغير، وكانت المتشابهات للأمور المتغيرة والحوادث المستجدة، وكان تأويل هذه المتشابهات مختصة بالمعصومين الذين لهم صلة مباشرة او غير مباشرة بالمشرع نفسه لمعرفة المقصود والمراد في كل عصر وزمان حتى يومنا هذا.

وخلاصة القول ان الاسلام بشريعته الخاتمة للشرائع والرسالات السماوية وبقرآنه الذي يتمتع بالمحكم والمتشابه هو الدستور الخالد الذي له الشمولية الى يوم القيامة.

## الهوامش والمصادر والمراجع


1 - شرح كتاب منطق حكمه الاشراق والضابط السابع من المقالة الاولى.
2 - اسفار صدر المتأهلين ص391 من شرح التعليقات.
3 - سورة آل عمران - الآية: 19.
4 - سورة آل عمران الآية: 75.
5 - سورة المائدة الآية: 3.
6 - سورة غافر - الآية: 78.
7 - سورة الحاقة - الآية: 44-46.
8 - سورة النجم - الآية: 3-5.
9 - سورة الصف - الآية: 6.
10 - سورة آل عمران - الآية: 19.
11 - سورة الاحزاب - الآية: 40.
12 - سورة الشورى - الآية: 13.
13 - سورة آل عمران - الآية: 19.
14 - سورة الحديد - الآية: 27.
15 - سورة النحل - الآية: 89.
16 - سورة البقرة - الآية: 3-2.
17 - سورة آل عمران - الآية: 7.
18 - سورة النساء - الآية: 105.
19 - سورة النساء - الآية: 136.
20 - سورة الانعام - الآية: 155.
21 - سورة النحل - الآية: 89.
22 - سورة الشعراء - الآية: 192-195.

23 - سورة النساء - الآية: 82.

24 - سورة آل عمران - الآية: 7.

25 - سورة يونس - الآية: 44.

26 - سورة النساء - الآية: 44.

27 - سورة الجاثية - الآية: 23.

28 - سورة الاعراف - الآية: 54.

29 - سورة الشورى - الآية: 11.

30 - سورة التوحيد - الآية: 4.

31 - سورة البقرة - الآية: 286.

32 - سورة الانعام - الآية: 151.

33 - سورة التوحيد - الآية: 1.

34 - سورة التوحيد - الآية: 3-4.

35 - سورة فصلت - الآية: 46.

36 - سورة الزمر - الآية: 56.

37 - سورة الزمر - الآية: 68.

38 - سورة القمر - الآية: 14.

39 - سورة الرعد - الآية: 27.

40 - سورة محمد - الآية: 23.

41 - سورة التوبة - الآية: 93.

42 - سورة هود - الآية: 1.

43 - سورة الزمر - الآية: 23.

44 - سورة آل عمران - الآية: 7.

45 - سورة النجم - الآية: 3-4.

46 - سورة طه - الآية: 49-50.

47 - سورة الاحزاب - الآية: 40.

# الإتصال والتواصل بين الرسالات السماوية

د/ محمد حسين المكنى
بأبي شهاب الدين
المركز الجامعي - ورقلة -

## 1- مقدمة:

لماذا الإتصال والتواصل بين الرسالات السماوية؟

ينبغي للديانات السماوية أن تتصالح مع بعضها وتنسق جهودها لتستطيع أن تخدم بحق قضية السلم حيث أن الواقع البشري المعاصر يضطرها إلى ذلك إضطرارا من حيث أن الدراسات المستقبلية تكاد تجمع على أن ظروف الكائن الإنساني على هذا الكوكب ستعرف نوعا من الصعوبة تشكل خطرا يهدده في وجوده ذاته.

فالتنافس الإقتصادي أخل إلى حد خطير بالتوازن البيئي فضلا على أن النظم السياسية والثقافات السائدة والغالبة أخلت بالتوازن الإجتماعي العام على سطح الكوكب الأرضي حيث أن الثروة الإقتصادية جمعت بنسبة كبيرة في يد فئة محدودة ولم يبق لأغلبية سكان الأرض إلا فتاة يتقاتلون عليه يضاف إلى ذلك أن تطور الطب ووسائل العلاج أسهم في تفاقم النمو الديمغرافي إلى حد كبير الأمر الذي قذ يترتب عنه عجز موارد الكوكب عن تلبية الحاجات الأساسية لسكانه، كما أن تجمّع التقنية المتطورة جدا في يد البعض قد يترتب عنه خطر يهدد الكرامة الإنسانية فيصبح البعض سادة والبعض عبيدا.

وهذا الخلل نفسه سيبقى عاملا يغذي الصراعات وينشط الحروب، ولا نأمن أن تلجي الرغبة في الإنتصار، طرفا من أطراف الصراع إلى إستخدام الأسلحة ذات التدمير الشديد التي قد لا تصيب بأضرارها طرفي الصراع